الأزياء التراثيّة:
بين الهويّة وتأثير الحداثة

رانيين شعبان*

مقدّمة

إنّ مفهوم التراث من أهمّ المفاهيم، الّتي تشير إلى تاريخ الأمّم والشعوب، ويعني مجمل ما وصلت إليهِ تلك الشعوب والأمّم على مختلف الصُّعد. والفنون على اختلاف أنواعها؛ هي ضمن المكوّنات التراثيّة للشعوب، الّتي تؤكد تاريخها، وينعكس على حاضرها، ويرسم مستقبلها، ويعزّز روح الجماعة، والانسجام، والترابط بينها .

المحافظة على التراث عملٌ جماعيّ، يجب تفعيل مختلف الأطراف المعنيّة به، سواء على مستوى الأفراد، أو الحكومات، أو الهيئات التعليميّة، أو مؤسّسات المجتمع المدنيّ.

من أهمّ المكوّنات التراثيّة للشعوب: الأزياء، والفنون المعماريّة التشكيليّة، والموسيقى الشعبيّة، وأنواع الرقص المختلفة، واللّهجات، والحِرف اليدويّة وغيرها؛

---

* طالبة في المعهد العالي للدكتوراه في الجامعة اللُّبنانيّة.

ما يتطلّب الحفاظ عليها بصفتها مكوّنات تراثيّة متجسّدة على أرض الواقع.

الأزياء الّتي نتناولها في هذا البحث تكتسب قيمة استثنائيّة بين جميع الموروثات؛ لأنّها لدى الشعوب جزءٌ من الهويّة الأُمّ، وعلامة تميّز العصور والأصول، كما أنّها جزءٌ أخّاذ من الذاكرة الثقافيّة للشعوب، وسجلٌّ يحفظ بين طيّاته عادات الأُمّة وتراثها، ويستدلّ بها على كثير من المؤشّرات الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، والمنزلة الاجتماعيّة.

إنّ الأزياء هي الوسيلة الأهمّ في كشف تراث الشعوب بمختلف الأزمان، وهي المعبر الحقيقيّ عن مراحل التاريخ الهامّة لحياة الأقوام، وتمثّل الزمان والمكان والهويّة والثقافة، وهي نتاج حضاريّ يتميّز بالأصالة والتنوّع، ويختلف نظرًا للجغرافيا، والأصول، والمنابت، والعقيدة، والجماعات، والأقلّيّات، والمناطقيّة، والارتباطات الاجتماعيّة.

الأزياء التراثيّة في الأردن، موضوع دراستنا هذه، تتنوّع تبعًا للمناطق والعادات والتقاليد والطبقيّة، ومن بينها أزياء الشركس، الّذين هاجروا من بلاد جبال القفقاس إلى الأردن في الربع الأخير من القرن التّاسع عشر.

تتميّز أزياء الشركس بالجاذبيّة، والدقّة، والحرفيّة، وهي جزء أصيل من تراثهم، الّذي يحرصون عليه. لكن التنافس التجاريّ بين المُصمّمين والشركات والدول اجتاح عالم الأزياء، الّتي خضعت بدورها لكثير من التغيير بما فيها أزياء الشركس التقليديّة، الّتي باتت مهدّدة بالانقراض، وفقدان هويّة الزيّ التقليديّ جرّاء تفضيل الناس للموضة الجديدة.

تحوّل العالم اليوم إلى قرية صغيرة صُيِّغت فيها علاقة جديدة للإنسان مع أدّق تفاصيل حياته المعاصرة والمختلفة كلّيًّا عن السابق، فقد تأثر الشرق كثيرًا بالثقافة الغربيّة، الّتي طالت مختلف القيم والموروثات والسلوكيّات، ومن بين تلك العلاقة الجديدة؛ علاقة الإنسان مع اللّباس الّذي انسحب فيهِ الزيّ التراثيّ من الحياة اليوميّة؛ لينحصر استعماله في المناسبات الرسميّة، أو في مناسبات محدّدة. لقد فرض الزّيّ الحديث نفسه باسم الموضة والمعاصرة على الذوق العام، وفقدت الأزياء الكثير من أصالتها، أو أنّها استطاعت أن تحافظ على فكرتها رغم كابوس التعديل والتحديث.

تجد الأزياء الشركسيّة نفسها اليوم بين مطرقتين؛ مطرقة الهويّة والقيم، الّتي

تربط الأفراد بالماضي والحنين لهُ والاعتزاز بهِ وقدسيّة المحافظة عليها، وعلاقتها بالسلوك الاجتماعيّ والجمال المحسوس للشركس، أو البيئة الأردنيّة المحيطة، ومطرقة التعديل والتغيير، والتأثّر بالثقافة الغربيّة والحداثة، الّتي تحاول أن تفرض نفسها على الأزياء الشرقيّة، في ظل تسويق محموم للتصاميم الجديدة، وقدرتها على التأثير على الذوق العام.

الشركس: هم مجموعة شعوب تشمل سكان شمال القوقاز من أديغة وشيشان وآفار ولزجين. ونتيجة للحروب التوسّعيّة الّتي شنّتها الإمبراطوريّة الروسيّة في المنطقة اضّطُرَّ الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانيّة، أو الروسيّة بعد حروب واضطرابات استمرّت أكثر من مئة عام.

والأزياء الشركسية: هي اللّباس الّذي يرتديه الرجل والمرأة الشراكسة منذ قرون.

ويتميّز ذلك اللّباس بجمالهِ وتفاصيلهِ الكثيرة، وهو لباس نادر من حيث المكوّنات، ويعجب بهِ كلّ مَن يراه، وكان في الماضي لباسًا دائمًا لدى الشركس في مختلف ظروف الحياة، بينما اليوم ومع اختلاف نمط الحياة اقتصر لبسه على المناسبات.

والهويّة: هي مجمل السّمات الّتي تُميّز شيئًا عن غيره، أو شخصًا عن غيره، أو مجموعة عن غيرها. فهناك الهويّة الشخصيّة المتعلّقة بمعلومات الفرد، وهناك الهويّة الجمعيّة (وطنيّة، أو قوميّة) والمقصودة في هذا البحث وهي تدلّ على ميزات مشتركة لمجموعة من الأفراد، الّذين يتشابهون بالميزات الأساسيّة الّتي كوّنتهم. ومن تلك المكوّنات الزيّ لدى الشركس.

والحداثة: هي العصرنة كما يسمّيها بعضهم، وهي تحديث وتجديد ما هو قديم، ويبرز هذا المصطلح في المجالات: الثقافيّة، والفكريّة، والتاريخيّة، ويشمل مجموعة من التغييرات الاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة، الّتي تطال نمط الحياة بكلّ مكوّناتها، ومن بينها الزيّ الشركسيّ الّذي يتناول هذا البحث مدى تأثّره بالحداثة.

يُعدّ الشراكسة أقدم الأمم المعروفة، الّتي سكنت القوقاز الشماليّ، وقد اختلطوا بشعوب أخرى، ما أدّى إلى ظهور فوارق لغويّة بينهم، وصلت مع تقدّم الزمن إلى درجة كبيرة من الاختلاف على الرّغم من وحدة ثقافتهم الإسلاميّة، واتّحاد مصيرهم، ويقول المؤرّخون الشركس: «إنّ لقب (شركسيّ) ليس اسمًا لأحد من

الأقوام الساكنة في شمال القوقاز ممّا مرّ ذكرها، ولا تجد هناك حتى قبيلة واحدة تحمل اسم: (القبيلة الشركسيّة) في القوقاز؛ وإنّما هي كلمة أطلقها الأجانب على أبناء شعوب شمالي القوقاز، واسم أطلقوه على سكان تلك المنطقة الأصليّين، واسم شركس، أو لقب شراكسة، أو شركسيّ أطلق على جميع الشعوب، الّتي كانت تسكن شمالي القوقاز بما فيها الشيشان. وبتعبير أدّق، فإنّ اسم شراكسة يطلق الآن على جميع الشعوب، الّتي كانت تسكن الشمال القوقازيّ» [1].

هجرة الشركس إلى الأردن

بدأت هجرة الشركس من القفقاس لأول مرة عام 1858م بشكلّ متقطِّع، ولكنّها تزايدت خلال الفترة الواقعة بين عامي (1864م– 1878م) ، وقد تركوا وطنهم حماية لدينهم أمام محاولات القمع والإبادة الروسيّة، وتحمَّلوا المشاقّ والصّعاب في هذا السبيل، وارتضوا بأن يستبدلوا بلادهم القفقاسيّة الخضراء الجميلة، وجبالها الشاهقة، وغاباتها الكثيفة، ومياهها الوفيرة بوطنهم الثاني الأردن.

آثروا العيش في الكهوف والوديان ردحًا من الزمن؛ في سبيل دينهم وإيمانهم، بعد أن كانوا يعيشون في رغد من العيش الوفير في بلادهم الخيّرة المعطاءة، ولم يكن في الأردن في ذلك الحين مدينة اسمها عمّان، وكلّ ما كان هناك بقايا أطلال رومانيّة لمدينة عمُّون التاريخيّة.

أبرز تلك الأطلال المدرج الرومانيّ الشهير، المعروف باسم (فيلادِلفيا)، والحمّامات الرومانيّة الّتي ما زالت آثارها باقية، والقلعة الّتي تشرف على خمسة أودية تتشكّل منها الآن العاصمة عمـّان، هذا بالإضافة إلى جامع قديم مهجور يعود في تاريخهِ إلى عهد الأمويّين، ولا صلاة تُقام فيهِ، وبرج عالٍ أشبه بالمئذنة، وتقول رواية أنّ الجامع والبرج من آثار البيزنطيّين، وتـمَّ تحويلهما في العهد الإسلاميّ إلى مسجد ومئذنة، ثـمّ عفا عليهما الزمن إلى أن وصل المهاجرون الشركس، فقاموا ببناء مسجد مكان الجامع القديم المهجور، وحوَّلوا البرج إلى مئذنة، وكان آخر فوج من المهاجرين الشركس قد وصل إلى عمّان سنة 1900م عن طريق الشام [2].

تلك الهجرة إلى الأردن كانت نتيجة صراع مرير مع الإمبراطوريّة الروسيّة؛ إذ بدأت الحرب بين الطرفين في عام 1763م وانتهت عام 1864م، أمضت خلالها

1- https://ar.wikipedia.org.

2- https://www.almadenahnews.com.

القوات الشركسيّة أكثر من مئة عام في حرب دفاع عن أراضيها الأصليّة، وهُجِّر أكثر من 90 في المئة إلى البلقان والأراضي العثمانيّة [1].

قدّر الدكتور محي الدين قندور في كتابه (دراسة في الحروب القفقاسيّة الروسيّة)، أنّ نحو مليونَي شخص هاجروا إلى الدولة العثمانيّة آنذاك، وأنّ نحو نصف مليون شركسيّ قضوا على طريق الهجرة؛ حيث غرِقت سُفنهم في البحر الأسود، فيما شتّت وجود الآخرين؛ بسبب الهزيمة في الحرب .

يتراوح عدد الشركس في العالم من 10-8 ملايين نسمة، أغلبيّتهم في المهجر، فيما يقيم في تركيا نحو6 ملايين نسمة. أمّا في الوطن الأُمّ فلم يبق منهم ما يزيد عن 600-500 ألف نسمة، واستوطنوا مع القرن التاسع عشر في سوريا، والأردن، ومصر، والعراق .

يتمسّك الشركس بالعادات والتقاليد بشكل كبير حتى يومنا هذا، والزيّ التقليديّ لهم هو جزء أساس من الهويّة الشركسيّة، والمُصَمَّم بما يتناسب مع ظروف معيشتهم وطبيعة بلادهم (جبال القوقاز في جنوب روسيا)، وكان الزيّ قديمًا يدلّ على الشعب الّذي ينتمي إليهِ لابسه، كما كان نوع القماش، وطريقة التفصيل، والإضافات الجماليّة؛ تُبرز الوضع الاجتماعيّ لمرتديها في المجتمع.

كان الشركس متفوّقين حتى على بعض الشعوب الأوروبيّة في جمال اللّباس، وقد أخذت عنهم شعوب عديدة زيّهم التقليديّ، وكان لديهم لباس للمحاربين فترة من الزمن، ثم زيّ للعامّة، وأخيرًا، لباس الفرق الفنيّة الّتي ساهمت في تعريف العالم بالزيّ الشركسيّ [2].

1- بين زيّ الرّجل والمرأة:

كلّ شعب لهُ معاييره الخاصّة بالجمال؛ فالجميلة عند الشركس كانت ممشوقة القدّ، نحيفة الخصر، ضّيقة المنكبين، عريضة الحوض، غير منتفخة الصدر، عالية رؤوس أصابع القدمين، صغيرة القدمين. كما أنّ مواصفات الجميل بالنسبة إلى الرجال، يكون عريض المنكبين، لديهِ خفّة المشي، وصغير القدمين [3].

1- https://www.rozana.fm.

2- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، ج1، الأردن، 2009م، ص93.

3-مصدر نفسه، ص93 و94.

للرجل لباسه الخاصّ، الّذي صُمِّم للفارس والمقاتل، والّذي يتألّف من الرداء، أو المعطف الخارجيّ الّذي يسمّى ب (التسيا)[1]، يُصنع من قماش سميك ذي لون واحد، سكّريّ، أو أسود، أو خمريّ، وينتقي اللّون الأسود للمحاربين، ويصل إلى ما تحت الركبة، وهو مفتوح من الأمام، ويُزَرّ عند الخصر بأزرار قماشيّة من اللّون نفسه. أمّا الأكمام، فطويلة حتى الركبة ولكنّها كانت ترفع حتى المرفق، وهي مفتوحة من الأسفل والداخل، ثمّ القميص بنوعيه السّميك والرّقيق، ثمّ السّروال والقلبق (أيّ القبعة من الفرو)، والزنّار مع الخنجر، والحذاء الجليديّ ذو الرقبة الطويلة، أو القصيرة دون كعب، ويضاف إلى ذلك غطاء الرأس الّذي كان يرتديه كبار السنّ على الغالب [2].

أما لباس النّساء، فيتألف من المشدّ، الثوب الداخليّ القصير، والثوب الطويل، والصدريّة، والرّداء الخارجيّ. وكان لباس الرأس (بأشكال كثيرة)، يتألف منها من الطاقيّة الذهبيّة، طاقيّة التتار[3]، والطاقيّة المائلة، والطاقيّة الخوذة، والطاقيّة الفضيّة، والطاقيّة داخل البيت.

قد تمّ انتقاؤه بشكلٍ مكمّل للباس الرجال، ويبرز لجمال الإناث وخصوصًا الفتيات اللّواتي يصبحن فيه رشيقات أنيقات.

يتألّف اللباس من الرّداء الخارجيّ (الساية) المفتوح من الأمام من دون قبّة، والمُزرَّرْ عند الخصر، ومن الأمام بأزرار ذهبيّة أو فضّيّة، والأكمام ضيّقة حتى المرفق، ثمّ تبدأ بالتّوسّع والطول حتى ما تحت الركبة، مفتوحة من الطرفين من الأسفل، ومغطاة بنقوش ذهبيّة، أو فضّيّة غاية في الفنّ والجمال والذوق [4]. والرداء طويل، ويكاد يلامس الأرض، وتحته القميص الشتويّ، أو الصيفيّ الموشّى بالنقوش الذهبيّة أو الفضيّة، يُعرف بالثوب الطويل، يُخاط من قماش الحرير، أو الساتان، أو القطن؛ لأنّها ستظهر من خلال فتحة الرداء الخارجيّ (الساية). ثمّ الثوب الداخليّ

1- التسيا: ثوب طويل من دون قبة، مفتوح الصدر على شكلّ مثلث، ينتهي رأسه في الوسط، حيث يغلق عن طريق زر.

2- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، ج1، الأردن، 2009. ص109.

3- طاقيّة التتار: طاقية من قماش المخمل ولها ذنبة طويلة من الخلف تصل إلى الكتف، وكانت تزين بتطريز على شكل أوراق شجر، وظهرها مزيّن بزرّ ذهبيّ في الوسط.

4- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، ج1، الأردن، 2009. ص97.

القصير، الّذي يلبس تحت القميص، من الحرير الأبيض، أو من قماش قطن ناعم، مفتوح الرقبة وبلا أكمام ويغطي حتى الركبة. ثمّ القبعة وغطاء الرأس، ثمّ الحزام الّذي يُصنع من المعدن المغطى بنقوش ذهبيّة، أو فضّيّة بتطاريز شركسيّة. أمّا الأحذية النسائيّة فهي على عدّة أجزاء، منها خف السختيان، البابوج، البوط، وخف مداس، وحذاء جلد المواشي، والقبقاب [1].

أ- زيّ الفارس الشركسيّ:

- **الخنجر الطويل**، (قامة) وعادة ما يكون مصنوعًا من الفضّة المطعّمة بالأحجار الكريمة، ويكون عادة الخنجر في وسط الخصر.

- **السيف**، وهو أطول من الخنجر، ويكون عادة على يسار الفارس، ويمتاز مقبضه بعدم وجود واقٍ للأصابع كنوع من الشجاعة.

- **السوط**، يكون مقبضه من الخشب، ويتدلّى منه حبل من الجلد الناعم، الّذي لا يؤذي الحصان.

- **جيل المسدس**، (بيت المسدس) مصنوع من الجلد، وغالبًا ما يكون مزيّنًا بقطع فضّيّة وأحجار كريمة.

كلّ ما ورد ذكره من أجزاء الزيّ الشركسيّ هي للملابس الرسميّة. أمّا في أثناء النوم، أو في أثناء العمل في المنزل، أو في الحقول كانت ملابسهم عمليّة وبسيطة مريحة خالية من الزخارف.

ب- زيّ النساء:

- **القبّعة**، تكون من القماش المغطّى بالحرير والتطاريز، وزخارف من الفضّة، أو الذهب.

- **غطاء الرأس**، كانت الفتيات تتفنّن في غزل غطائهنّ وحياكته.

- **الفستان الداخليّ**، وعادة ما يكون مصنوعًا من قماش ناعم قطنيّ مريح.

- **الفستان الأساسيّ**، ذو باقة عالية مزيّن صدرة الخصر بنقوش من الفضّة، أو الذهب، أو التطريز، ويكون طويل الكعبين، ومفتوحًا من الظهر، أو من الجنب إلى الخصر.

1- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، مصدر سابق، ص 104-95.

- **الفستان الخارجيّ**، (معطف) مصنوع من القماش السميك، أو المخمل، مفتوح من الأمام كاملًا، ويكون مطرّزًا ومزخرفًا.
- **الحزام**، يكون من الفضّة أو الذهب، وأحيانًا من الحديد، يحتوي على زخارف وأحجار كريمة.
- **الأحذية**، كانت تستعمل الفتاة الشركسيّة داخل المنزل حذاءً جلديًّا خفيفًا، أمّا عند خروجها للمناسبات والزيارات فكانت تستعمل حذاءً خشبيًّا، فتظهر أطول في قامتها، ومشيتها بطيئة، ما يزيد من جمالها [1].

العادات والتقاليد الشركسيّة

تشكّل العادات والتقاليد الشركسيّة نظام حياة؛ إذ إنّ حياة الإنسان منذ أول يوم من ولادته يخضع لتلك التقاليد، فيتمّ وضع الترتيبات لكلّ ما يتعلق بهِ من ملبسهِ وطرق تربيتهِ وتعليمهِ وتدريبهِ، كما أنّ تنظيم كلّ أموره من الزواج إلى الحياة العائليّة وصولًا إلى موته ترتبط تمامًا بتلك العادات، والّتي تظهر في مراسيم العرس، أو الدفن والتعزية.

كانت العادات عند الشركس هي القواعد الخاصّة بتنظيم الحياة والمجتمع، وكانت مثل الدستور غير المكتوب، الّذي لا يمكن مخالفته؛ إذ إنّ العادات والتقاليد الشركسيّة كانت تتّصف بالمحافظة على الأصل، والاستمراريّة، والمثابرة [2].

في التاريخ القديم الأوّل للشركس، كان للمرأة دور قياديّ؛ حيث كان الانتساب إلى الأمّ وليس إلى الأبّ؛ إذ ينتمي الإنسان إلى عشيرة أُمّه. وكان هناك قيادات نسائيّة، أو زعامات الأمّهات اللّاتي تصدرن القرارات والأوامر الملزمة للنّاس، ويضعن التقاليد ويحدّدنها، ويعملن على سنّ الأنظمة والقوانين، ثمّ انتقلت السيطرة إلى الأب. وبذلك، ظهر الاختلاف على الملكيّة؛ بسبب الغنائم الّتي كانت تأتي من الحروب، وبعد اكتشاف المعادن.

عُرف عن الشركس التزامهم بالقوانين والأنظمة، فهناك عقوبة على كلّ مَن يتجاوز الأعراف المعمول بها، وعندما كان الأمراء يُخطئون ويقومون بأفعال مسيئة ومظالم، كان بعضهم يتعرّض للعزل، وكان الزعماء يجتمعون كلّ شهر ويتباحثون في

1- مترجم من برنامج آنة خوراي - أيّ الطاولة المستديرة، مع ضيف من شركس سوريا.

2- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، مصدر سابق، ج 1، ص17 و18.

العديد من الشؤون الاجتماعيّة والمعيشيّة، وعلاقتهم بالشعوب المجاورة لهم.

أمّا اليوم، فلم تعد العادات كما كانت في الماضي الّذي انقضى، وباستثناء القليل، فإنّ أكثر الشركس لم يعودوا يعرفون العادات والتقاليد، والّذين يعرفونها لم يعودوا يلتزمون بها، وبعضهم يحاول الدعوة إليها والتفاخر بها ليحظى بمكانة ما يسعى إليها في الألفيّة الحاليّة [1].

الرقصات الشركسيّة والزّيّ

امتاز الرقص الشركسيّ عن كثير من رقصات الشعوب الأخرى بجماليّة الحركات، الّتي يقومون بها، وتعدّدت أنواع تلك الرقصات الّتي أكثر ما يلفت الانتباه إليها الزيّ الشركسيّ المناسب لتلك الرقصات، والمُصَمَّم بطريقة يمكن أن يناسب الفروسيّة، والعمل، والزراعة، والرقص، وغيرها.

ففي رقصة (القافا)، أو الزفاكوا، وهما تسميتان مختلفتان لرقصة واحدة – رقصة التعارف، نرى الجانب الأرستقراطيّ من تلك الشخصيّة، ونلحظ الكبرياء وعزّة النفس؛ حيث يُبدي الراقص كلّ ما لديه من جمال النّفس والروح والجسد. ومِنْ ثَمّ، فإنّهُ يُحدِّث الفتاة عن نفسه ومكانته ضمن قومهِ، ويريها الطريقة الّتي يسلكها وسط مجتمعه والعكس صحيح بالنسبة إلى الفتاة الّتي تشاركه الرقص.

أمّا الرقصات الأخرى كالرقصة الإسلاميّة، الباحثة عن الروح، فنراها أكثر وجدانيّة وجرأة، فيها العنفوان والقوّة الجسديّة [2]، ثمّ رقصة الزغالات (الاعتراف بالحُبّ)، والّتي تتيح للشاب التعبير عن حركاته الراقصة بكثير من البراعة والتميّز، فتُجاريه الفتاة ويكون بذلك ردًّا على أنّ الحُبّ قد وقع. وآخرها رقصة الوفاق أو الاتّفاق، وبخلاف كلّ الرّقصات، الّتي لا يجوز فيها لمس الرّاقصة، ففي تلك الرقصة، يرقصان وكلّ منهما يمسك بيد الآخر بعد الاعتراف بالحُبّ لبعضهما بعضًا [3].

كان الشركسيّ دائم التنقّل على فرسهِ، حاملًا لسلاحه الّذي لا يفارقه، متحفزًا دائمًا للهجوم والدفاع في أثناء جولات الخطر الّتي يتعرّض لها، حتى في لحظات

1- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، مصدر سابق، ج 1، ص97.

2- https://ar.wikipedia.org.

3- مصدر نفسه، ص228.

السِّلم كان يؤكدّ جهوزيّته الحربيّة، وفروسيّته، ولياقته الجسديّة، وإيماءاته في استخدامه للأسلحة المختلفة، وذلك ما يتمثّل في بعض أنواع الرقصات الشركسيّة، الّتي تعبّر عن أفكار وإشارات يستخدمها الرجل في حركات يديه، وتعابير وجهه وجسده؛ لإيصال الفكرة [1].

تُعدّ الرّقصات الشركسيّة من ضمن التراث الوطنيّ الأردنيّ، الّذي يضمّ موروثات متنوّعة، وفنًّا شعبيًّا لهُ تاريخهُ وعراقته، وتحظى بحضور شعبيّ كبير في المناسبات الخاصّة.

الهويّة

ارتبط الزّيّ الشركسيّ بالهويّة، الّتي حافظ عليها الشراكسة بوصفها إرثًا حضاريًّا تركها لهم الأجداد. وخاضت الأُمّة الشركسيّة حربًا امتدّت قرنًا ونيّفًا من الزمن حين تعرّضت بلادهم لهجمة استعماريّة روسيّة, خسر الشراكسة خلالها أكثر من 85% من عددهم، وأنهكت قواهم فاستسلموا للقيصر الروسيّ في أيّار 1864م، آملين أن يحظوا بشروط مقبولة، تُتيح لهم العيش على أرضهم، لكنّ القيصر الروسيّ أصرّ على تهجيرهم من بلادهم؛ لأنّه كان يريد أرضًا بلا سكّان [2].

بعد كلّ خسائرها، وبعد أن هُزِمَت في تلك الحرب الطويلة، الّتي أتت على الزرع والضرع, وبعد أن تعرّضت لتهجير مريع ومهين, وبُعثِرت على بقاع متباعدة ومنقطعة بعضها عن بعض, جعل ذلك كلّه تلك الأمّة قلقة على نفسها، وهي ترى هويّتها مهدّدة ومطعونة ومهزومة.

إنّ مسألة الهويّة في غاية الحساسيّة والأهمّيّة, فحين تتهدّد الهويّة، يُشعر الفرد بأنّ هناك ما يجبره على تغيير ذاتهِ, وبأنّه مُجبر على تغيير جلدهِ, وتغيير لونهِ, وتغيير روحهِ, فذلك يفقده اعتزازه بنفسه وبكرامته, فأغلب الناس حين تَعرُّضِهم لما يُجبرهم على تغيير روحهم, ينغلقون ويتقوقعون, ويصبحون غير قادرين على التفاعل، وتبادل التأثُّر والتأثير مع الآخرين, وهناك آخرون حين يشعرون بأنّ كرامتهم وعزّة أنفسهم المتعلّقة بهويّتهم مهدّدة, تراهم على العكس يتبرّؤون من كلّ علاقة معها, ويحاولون التماهي أكثر بهويّة الآخر؛ الأقوى، والأفضل، والأجدر،

1- https://ar.wikipedia.org.

2- عوني تغوج، العادات والتقاليد الشركسيّة. http://www.ich.gov.jo/node/52121.

والأغنى، والأرقى, حسب رؤيتهم المصابة بالألم الداخليّ العميق [1].

في الأردن، اختار الشراكسة عدم الانعزال، فعاشوا في المدن والضواحي منذ قدومهم إلى الأردن، ودخل أبناؤهم المدارس، واندفعوا لإيجاد مكان لهم في الدولة, والمجتمع الأردنيّ، وأثبتوا حضورهم، وانصهروا وتبوّأوا أرفع المراكز السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة، وهم جزء أصيل من العشائر الأردنيّة، الّتي يُنظر إليها باحترام من قِبَل النّظام ككلّ، ومن قِبَل الشعب الأردنيّ، الّذي لا يُفرّق الشركسيّ عن أيّ فرد آخر، كما أنّ الشركس في الأردن يسعون إلى المحافظة على هويّتهم دون الانعزال عن الآخرين؛ بل يعملون على تعميم ثقافتهم وعاداتهم وليس الانطواء عليها، ولا ينقسمون كما في البلدان الأخرى، وحاولوا أن يكونوا ضمن الدولة، وبين أن يحافظوا على مكانتهم واسمهم وهويّتهم وليس أن يُنفى اسمهم في المحافل الدوليّة.

يعبّر الشركس عن حماسة كبيرة في المهرجانات والمنتديات والاحتفالات شبّانًا وفتياتٍ, رجالًا ونساءً وحتى الأطفال, عند سماع الموسيقى الشركسيّة, وعند الرقص والتشجيع، وهو ردّ فعل طبيعيّ على احترام الهويّة والثقافة والانتماء الأديغي العميق، لكن ذلك لا يتعارض مع انتمائهم للدولة الأردنيّة، كما هو معروف عنهم بشكلٍ كبير [2].

الحداثة

يحتلّ مفهوم الحداثة (Modernity) في الفكر المعاصر مكانًا بارزًا، فهو يشير_بوجه عام_ إلى صيرورة الأشياء بعد أن كان يشير إلى جوهرها، ويفرض صورة جديدة للإنسان والعقل والهويّة، تتناقض جذريًّا مع ما كان سائدًا في القرون الوسطى.

على الرّغم من أهمّيّة ذلك المفهوم وشيوعه في الفكر المعاصر، إلّا أنّهُ أكثر التباسًا وتعقيدًا لما ينطوي عليه من غموض وارتباطهِ بحقول معرفيّة عدّة،

1- شركيسيا تايمس: الهويّة الشركسيّة - تأمّلات في يوم الحداد، مصدر سابق.
http://circassiatimesarabic.blogspot.com/2015/07/blog-post_60.html

2- شركيسيا تايمس: الهويّة الشركسيّة - تأمّلات في يوم الحداد، مصدر سابق.
http://circassiatimesarabic.blogspot.com

واستخدامهِ في مجالات مختلفة، وتَوَازي معناه مع مسيرة الحضارة الغربيّة الحديثة، الّتي أفرزت إشكاليّات رافقت الحداثة، وما بعدها [1].

كما تعدّد أبعاده ومدلولاتهِ وشموليّتهِ لمستويات من الوجود الإنسانيّ، العلميّة، والتقنيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والأدبيّة، والفنّيّة، والفلسفيّة، والتداخل فيما بينها.

الحداثة هي نقيض القديم والتقليديّ، وذلك يرتبط بالزيّ الشركسيّ، الّذي نبحث هنا عن مدى التناقض فيه بين الماضي والحاضر، وما إذا سُلبت منهُ تفاصيلهُ الخاصّة إسوةً بالتحديث ومواكبة العصر. والحداثة ليست مذهبًا سياسيًّا، أو تربويًّا، أو نظامًا ثقافيًّا واجتماعيًّا فحسب؛ بل هي بحسب المدافعين عنها «حركة نهوض وتطوير وإبداع، هدفها تغيير أنماط التفكير والعمل والسلوك، وهي حركة تنويريّة عقلانيّة مستمرّة، هدفها تبديل النّظرة الجامدة إلى الأشياء والكون والحياة إلى نظرة أكثر تفاؤلًا وحيويّة».

تطال الحداثة مختلف شؤون الحياة، وتتفاوت وطأة تأثيرها من شعب إلى آخر، ويدخل فيها مدى الثقافة والشأن الاقتصاديّ، والتطوّر والصناعة والانفتاح، لا سيّما في دول العالم الثالث، الّتي تتعرّض لحالة ارتباك بين موروثها وهويّتها، وبين الحداثة الّتي تفرض نفسها وعدم القدرة على مواجهتها [2].

هل يعيش الزّيّ التراثيّ الشركسيّ في الأردن في ظلّ الحداثة المتسارعة والعولمة، أزمة هويّة وتأثّر بالثقافة الغربيّة، أم ما زال محافظًا على أصالتهِ؟!

عملت الحداثة في الزيّ الشركسيّ على كسر النّمط السائد في العصور القديمة، وقدّمت أزياء جديدة عمليّة، تواكب الواقع ومتطلّبات الحياة، والعمل في ظلّ مجتمع دخل عصر الصناعة والتجارة الواسعة، واختلفت معه ظروف العمل والتنقّل.

الزيّ الشركسيّ، هو ضمن أزياء العالم والأُمم والشعوب، الّتي طالته الحداثة واختلاف نمط الحياة، الّذي يختلف معه طبيعة العيش والسلوكيّات، وجزء من آثار هذا التحديث أنّ ذلك الزيّ بات لا يُرى على الشراكسة إلّا في المناسبات والاحتفالات الرسميّة منها والاجتماعيّة؛ حيث يلبسونه مشاركون ومشاركات في فرق الرقص.

إنّ الحداثة والعولمة الّتي اجتاحت العالم، أثّرت على الزيّ العالميّ برمّتهِ، من

1- إبراهيم الحيدري، ما هي الحداثة؟ https://elaph.com.

2- إبراهيم الحيدري، ما هي الحداثة؟ https://elaph.com.

خلال الصراع على الموضة والتنافس الشديد في اختراع ما هو جديد يوميًّا لجهة الاستهلاك. ولأنّ الشركس يعيشون في مجتمعات عدّة، ويواجهون انخراطًا متفاوتًا ضمن الهويّة العامّة لتلك المجتمعات بما في ذلك اللباس، ولأنّ عدم وجودهم في دولة واحدة، أو جغرافيا واحدة تخصّهم، لحق بزيّهم تعديلات وتغييرات استدعتها ظروف غير إراديّة، لا سيّما الزيّ الشركسيّ التراثيّ، الّذي يُناسب طقس وطبيعة تختلف عن جغرافيّة الدول الّتي هاجروا إليها وعاشوا فيها.

بقيت أكثر الملابس والأزياء الشركسيّة محافظة على شكلها ومظهرها الخارجيّ، لكن ما تغيّر هو كثافة القماش وخامته، والمعدن المستخدم سابقًا، فمثلًا المعدن الذهبيّ والفضّيّ، الّذي كان مثبتًا كإكسسوار يُضيف من فخامة الزيّ وسحره في بعض مواضعهِ، تمّ تحديثهُ واستخدام رسومات بالخيوط الذهبيّة والفضّيّة بدلًا منهُ، على أن تُبقي تقريبًا على الشكل والزخرفة نفسها .

في مقابلة مع رئيس نادي الجيل الجديد الشركسيّ في الأردن (نبيل عكّاش)[1] ، ذهب إلى القول بأنّ القفقاسيّين هم أشدّ النّاس تقديرًا وتعلّقًا بلباسهم القوميّ, وهو من أساسيّات قوميّتهم، ووطنيّتهم، وإنسانيّتهم، وأخلاقهم، وقيمهم، وحتى كيانهم. وتلك ميزة من ميزات القفقاسيّين الّتي يتغنّون بها. واللّباس الشركسيّ مُريح ولائق للرجل الفارس كما المرأة، ولم يطرأ عليهِ أيّ تبديل، أو تغيير إلّا الشيء القليل جدًّا, نظرًا لعدم توفّر المادّة الأصل، الّتي كانت تستعمل سابقًا؛ فالقطن والكتّان اللّذان يُصنعان منهما ذلك اللّباس منذ آلاف السنين للألبسة الداخليّة، كما الصّوف والفرو والجلد للألبسة الخارجيّة ما عادت نفسها.

في الزمن الحديث، يقول نبيل عكاش أنّ استخدامات القطن والجلد والكتان تغيّرت وبات هناك مصنوعات قماشيّة تُعطي الشكل نفسه لكنّها من نوع آخر. لذا، تمّ استخدام بدائل حديثة للجلد والقطن في اللّباس الشركسيّ مع أهمّيّة أن تعطي الشكل نفسه قدر الإمكان.

في مقابلة أخرى مع الناشطة الاجتماعيّة في المجتمع الشركسيّ في الأردن وروسيا، المهندسة (دانه محمود بيج)[2] ، أفادتْ أنّ أكثر شيء يُميّز الهويّة الشركسيّة

1- مقابلة أجرتها الباحثة مع رئيس نادي الجيل الجديد الشركسيّ نبيل عكاش بتاريخ 04/10/2019.

2- مقابلة أجرتها الباحثة مع المهندسة دانه محمود بيج بتاريخ 08/10/2019.

في الشتات وفي القفقاس حاليًا، هو الزيّ الشركسيّ. فهو يُعدّ عاملًا مهمًّا جدًّا لهويّة الشركس وتراثهم، وأنّهُ على الرّغم من مرور قرون عدّة على تاريخ الزّيّ الشركسيّ، وعلى الرّغم من الظروف الصعبة، والحروب، وملايين الوَفَيات، والتهجير، واللّجوء إلى بلدان شتى وبعيدة ، إلّا أنّ الشراكسة استطاعوا المحافظة إلى أقصى حدّ على زيّهم والتمسّك بهِ، ومنعوا أيّ تغيير، أو تأثير جوهريّ قد يلحق بهِ، حتى مع هيمنة الحداثة والعولمة في كلّ بقاع الأرض.

تذهب الناشطة (دانه محمود بيج) إلى أن لا خوف من المستقبل، مهما طرأ عليه من تغييرات حياتيّة وعمليّة لمواكبة العصر؛ فالزّيّ الشركسيّ يخضع لتدقيق أفراد المجتمع الشركسيّ، وهم بدورهم لا يحبّذون أيّ تعديلات تؤثّر على أصالتهِ وشكلهِ. لا؛ بل ينتقدون كثيرًا إدخال أيّ تفصيل جديد من شأنهِ أنْ يؤثّر على القيمة التراثيّة الّتي يحملها الزّيّ.

الزّيّ الرسميّ يتمّ ارتداؤه في المناسبات الرسميّة، فهو ليس لباسًا عمليًّا. وهناك زيّ شبيه بهِ، أقلّ خفّة ونعومة، يلبسونهُ في بعض المناسبات والأفراح، فنمط الحياة ومتطلّباتها اليوميّة، أدّى إلى اختلافات طالت الزيّ في نوع الخامة والقماش والمعادن، ولكن ليس في المظهر والشكل الّذي يحملهُ.

تجدر الإشارة إلى أنّ لدى الشراكسة مناسبات تحفّزهم على الاهتمام بزيّهم والمحافظة عليه، وعدم تأثّره بالحداثة والثقافة الغربيّة الّتي تجتاح العالم، فهناك يوم احتفاليّ خاصّ بالزيّ لديهم، (الزيّ الشركسيّ العالميّ)، والّذي يصادف في 28 أيلول/سبتمبر من كلّ سنة، وفيه يلبس أغلب الشراكسة الزيّ في مختلف الدول حتى في عملهم خلال ذلك اليوم. وفي الأردن، يحتفل الشراكسة بذلك اليوم في الجمعيّات والمؤسّسات الخاصّة بهم، ويلبسونهُ رجالًا ونساءً.

هناك (يوم العلم الشركسيّ)، الّذي يصادف في 25 نيسان/أبريل، و(يوم العائدين)، الّذي يصادف في 1 آب/أغسطس، و(يوم رأس السنة الشركسيّة)، الّذي يصادف في 21 أذار/مارس، و(يوم اللّغة الشركسيّة)، الّذي يصادف في 14 أذار/مارس، و(يوم التهجير)، الّذي يصادف في 21 أيار/مايو، وهي كلّها مناسبات وطنيّة تساهم في التشجيع على إحياء المحافظة على الزيّ التراثيّ للشراكسة، وفيها يُثبتون هويّتهم ويعتزّون بلباسهم، ويؤكّدون رغبتهم في عدم تغييره، أو الاستغناء عنه.

يذهب الدكتور والباحث «عوني تغوج»، إلى أنّ العادات والتقاليد، الّتي حكمت

حياة الشراكسة ولباسهم آلاف السنين، تعرّضت في العقود الأخيرة لهجمة العولمة الّتي قضمت جزءًا من تلك التقاليد في اللّباس، وقضمت تكنولوجيا العصر بآلاتها وأجهزتها المتعدّدة جزءًا آخر، فخسرت المعركة أمام التطوّر الّذي شمل العالم كلّه، شأنها في ذلك شأن كلّ المجتمعات الّتي خسرت أجزاءً من هويّتها، وغلبت عليها سمات الحضارة الكونيّة الجديدة. وبذلك، يشير الدكتور «تغوج» إلى بعض التغييرات الّتي طالت اللّباس الشركسيّ بفضل الاختلاف في تصنيعها بين اليدويّ والآليّات الحديثة، الّتي فرضت نفسها والحاجة إليها، إلّا أنّهُ يعترض على أيّ تغيير يطرأ على اللّباس الشركسيّ [1].

للّباس الشركسيّ علاقة وطيدة بالواقع الجماليّ؛ فالوجه الأوّل للجمال عند الشراكسة هو جمال المظهر، الّذي تحدّده معايير الجمال الخارجيّ، وهذا يعني أنّ على مرتدي الزيّ الشركسيّ أن يكون جميلًا. وقد ارتبط زيّ الرجل الشركسيّ ارتباطًا كبيرًا بالفارس، الّذي يتمتّع بالشجاعة والخلق والكبرياء. لذا، نجد لباسه متناسقًا مع معايير جمال الرجل الشركسيّ.

كما يهتم الشراكسة باللّياقة والقوّة البدنيّة والتربية، فهم يعيرون الجمال الخارجيّ أيضًا اهتمامًا كبيرًا؛ ما جعلهم يتفنّنون في لباسهم، الّذي يوحي بالقوّة والشجاعة الّتي يفرضها شكل الزيّ في تفاصيلهِ، كإبراز القامة (الخنجر الشركسيّ)، ولوازم السلاح عند الحزام مثلًا، ما يتيح للفارس البقاء مرفوع الرأسِ، لإظهار قوّتهِ وقدرتهِ في الدفاع عن نفسهِ.

أمّا قبّة المعطف، وقميص الرجل الشركسيّ مثلًا، فتغطي كامل الرّقبة، ما يمنح الرجل الشركسيّ الوقار والشموخ خصوصًا في الزيّ العسكريّ، والّذي استوحيَ منهُ تصميم زيّ الرجل الشركسيّ، لما لمجتمع الشركس القديم من تميّز في المهارات الحربيّة والفروسيّة الفريدة، ما انعكس أيضًا على الهندام، وروح الأناقة.

من ضمن العادات والتقاليد الشركسيّة، ضرورة اكتساب اللّياقة والقوّة البدنيّة، الّتي ترتبط بالتربية منذ الصغر، مع سعي الأهل لاكتساب أبنائهم الصحّة الجيّدة، الّتي لا تفصل عن الصحّة في التعامل مع الآخرين، وقد فرضت عليهم الظروف المتقلّبة في القفقاس، كالحياة الزراعيّة والرعويّة والصيد والفروسيّة، وكذلك الحروب المستمرّة، بالإضافة إلى الأحوال الجويّة القاسية، ضرورة المحافظة على

1- عوني تغوج، العادات والتقاليد الشركسيّة، مرجع سابق. http://www.ich.gov.jo.

القوّة البدنيّة، الّتي أصبحت عادة متوارثة إلى اليوم، وإنْ كانت قد اتّخذت أشكالًا أخرى من التعبير. والجدير بالذكر ما كتبه الرحّالة عن الشراكسة، من أنّهم كانوا معتدلين في الأكل، يُوازنون بين الطاقة والجهد، ونادرًا ما وُجِد شركسيًّا بدينًا. لذلك، وُصِفوا بأنّهم عريضو المناكب، وضامرو الخصور، وبارزو العضلات [1].

كذلك، اتّصفت المرأة الشركسيّة بالاحتشام والتواضع والعفاف، ما انعكس على زيّها، الّذي صُمّم لها مرافقًا لمعايير جمالها وملامحها الّتي تحملها، فالتناهي في اللطف واللّباقة والأدب [2] يقابلهُ القدّ الممشوق، وضيق المنكبين، ونحافة الخصر، وذلك ما جعل الانسجام متوازنًا بين جمال المظهر وحشمته، وجمال الشكل عند المرأة الشركسيّة [3].

الجغرافيا الطبيعيّة

ينسجم الزّيّ الشركسيّ مع طبيعة الجغرافيا في بلاد القفقاس، المعروفة بالارتفاعات والجبال العالية الّتي سكنوها. لذا، كان زيّ الرجال مناسبًا لديناميكيّة الحياة والتفاعل معها، من خلال ركوب الخيل والتنقّل، خاصة ما يتعلّق بالزراعة الّتي اشتهر بها الشراكسة، إضافة إلى أنّ المعطف الطويل كان مفتوحًا؛ لكي يساعد في الحركة، والحذاء كذلك كان طويلًا لحدود الرّكبة، بما يتناسب مع طبيعة الأرض وصخورها، وللوقاية من البرد والثلوج الّتي تغطي بلاد القفقاس في فصل الشتاء. أمّا السروال فواسع عند الخصر؛ ليساعد في الحركة، وضيّقًا باتجاه الأسفل؛ لكي لا يعيق الرجل أثناء المشي، أو ركوب الخيل.

لم يعد ارتداء الزيّ القديم مناسبًا اليوم في مناخ الأردن. لذا، تمّ صناعة ما يقارب الزيّ القديم في شكلهِ، ولكن بأقمشة خفيفة مناسبة للأجواء المناخيّة المعتدلة في الأردن، وإكسسوارات أخفّ وأقلّ من مثيلاتها السابقة، تقوم بارتدائها الفرق الموسيقيّة الشركسيّة في الحفلات والمناسبات الخاصّة والعامّة الّتي تشهد حيّزًا مهمًّا من الإقبال في الأردن.

1- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، مصدر سابق، ص139. (بتصرّف).

2- عوني تغوج، العادات والتقاليد الشركسيّة، مصدر سابق. http://www.ich.gov.jo.

3- عاطف يخول، مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ، مصدر سابق، ص39. (بتصرّف).

المعتقدات

يتوافق زيّ المرأة الشركسيّة مع تعاليم الدين الإسلاميّ في الحشمة وتغطية الجسد كاملًا؛ إذ يشكّل المسلمون والمسيحيّون الغالبيّة العظمى من الشراكسة، فمعظم سكان شمال القوقاز المجاورين لروسيا المسيحيّة، مثل: (الشيشان، والشركس، والداغستان) مسلمون، بينما معظم سكّان ترانس قوقازيا المجاورين لتركيا وإيران المسلمتين مسيحيون، مثل: (الجورجيّين، والأرمن) ما عدا الأذربيجان المسلمين، ومعظم الجاليات القوقازيّة الّتي هاجرت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر الإمبراطوريّة العثمانيّة، واستوطنت في تركيا وبلاد الشام (الأردن، سوريا، وفلسطين) والعراق هي من الشركس والشيشان والداغستان المسلمين [1].

قد اعتقد الشراكسة أنّ الملابس الجميلة تفرضُ على الفتاة السلوك الحسَن؛ إذ تميّزتِ الفتيات والنساء الشركسيّات بالحشمة في اللّباس والذوق الرفيع. ومن المعروف أنّ المرأة الشركسيّة ملتزمة بتعاليم الدين الإسلاميّ، وما يمثّله من منظومة أخلاقيّة. لذلك، نرى أنّ زيّها الشركسيّ طويل ويغطي كامل جسدها، عدا عن أنّهُ متعدّد القطع الّتي ترتديها فوق بعضها بعضًا، ولكلّ قطعة شكل ووظيفة في تغطية الجسد والرقبة واليدين وكامل القدمين. لذا، نجد ثوبها طويلًا يغطي الجسد إلى حدّ الاحتشام، وهو الزّي الّذي نراه اليوم في المناسبات الخاصّة والعامّة، إضافة إلى حفلات الأعراس؛ حيث ترتدي العروس الزيّ الشركسيّ التقليديّ عند عقد قرانها، أو ما يُسمّى (قراءة الفاتحة) [2].

عُرف عن الشركس ذكر بعض الأدعية، الّتي تُقال لمن يلبس الأزياء الجديدة، كما أنّ بعض مواصفات الزيّ القوميّ الشركسيّ، خاصّة حمّالتي (الحرِز) المثبّتة على الصدر والمُغطّاة بالذهب، كانت تدلّ على المركز الاجتماعيّ لمرتديها، وعلى الطبقة الّتي ينتمي إليها، وما إذا كان من قادة القوم، الّذي يُبقي على جهوزيّتهِ التّامّة دائمًا في الدفاع عن نفسهِ وعن أرضهِ وعشيرتهِ، إلّا أنّ تلك المواصفات لا تكتمل إلّا «بالمحافظة على العادات والتقاليد الحميدة والسلوكيّات، الّتي تتماشى

1- بينو، سعيد «الشيشان والاستعمار الروسيّ (1859م1991-م)»، عمّان، 1997م، ص44.

2- أقطاي بندقدار. مدوّنات الجزيرة، «عادات الشراكسة.. تركِة لا تُتركَ».
https://blogs.aljazeera.net

مع الأدب والأخلاق والرجولة الحقّة، الّتي يجب أن يتحلّى بها الرجل الشركسيّ» [1].

بين ما يحملهُ الزيّ الشركسيّ (الرجاليّ والنسائيّ) التراثيّ من تفاصيل، وما يحملهُ اليوم من تبديلات أو تغييرات، نلحظ تمسّك الشراكسة بتراثهم وهويّتهم الأُمّ، وهذا ما نراهُ في روح الإحياء لديهم عبر الحفلات الفولكلوريّة، الّتي تُقام بشكلٍ دوريّ في المسرحيّات، أو العروض الراقصة، أو في أعراسهم الّتي تكون ختامًا لمرحلة عمريّة، وتجربة ذاتيّة، وبداية لمستقبل جديد لهم. وتشكّل الأزياء التراثيّة عند الشراكسة مصدر فخر واعتزاز لانتمائهم لأصولهم، وهم يقيمون لها وزنًا وحضورًا، ولا يوجد بيت شركسيّ في الأردن إلّا ولديهِ قطعة تراثيّة شركسيّة تُمثّل هويّته. لقد أبقوا على الشكل ومظهر الزيّ دون تغييره، ولكن المواد المكوّنة لذلك الزّي اختلفت عن السابق، نظرًا لتسارع حاجة السوق الاستهلاكيّة، وسرعة المكننة في تحصيل المنتوج.

كانت التقنيّات القديمة تحتاج إلى وقت طويل، ودقّة متناهية؛ لصناعة الثوب الشركسيّ يدويًّا، وبأيدي عاملة محترفة في التطريز والقصّ والخياطة. وترافق ذلك الاحتراف مع ثمن باهظ للثوب، الّذي يتزيّن بالذهب والفضّة، والخامات من الحرير والساتان، والقماش السميك، الّتي ميّزت الزيّ التراثيّ الشركسيّ. وهذا ما يصعب توفيره في عصرنا الرّاهن سواء لجهة تلك التقنيّات والتطريز والتصميم من أهل الخبرة والكفاءة، أم لجهة القدرة على تحمّل النفقات المرتفعة للثوب الواحد.

ذلك يُفسّر لماذا يقتصر حضور تلك الأزياء التراثيّة الشركسيّة على العروض والحفلات الراقصة والفولكلور، ولا نراه في صميم حياتنا اليوميّة، خاصة وأنّ اختلاف نمط العيش، والبيئة، ومتغيّرات الحياة جعلت من أزياء الشركس محصورة فقط في سينوغرافيا العروض.

إنّ أغلبيّة الشراكسة متمسّكون بالحفاظ على هويّة الزيّ الشركسيّ التراثيّ؛ بحيث يعني لهم الثبات على هويّتهم وثقافتهم، وما يتمتّع به ذلك الزيّ من الحشمة والوقار والجمال، حتى لا يفقد قيمته التراثيّة، بما هو موروث حضاريّ وقوميّ، مرتبط بالعادات والتاريخ الشركسيّ.

لم يمنع ذلك بعضهم من الدعوة إلى الخروج عن المألوف في ذلك الزيّ، بإضافة تصميمات جديدة، شرط الحفاظ على الطابع العام؛ لكي يتسنّى لبس ذلك

1- عوني تغوج، العادات والتقاليد الشركسيّة، مصدر سابق. http://www.ich.gov.jo.

الزيّ في الحياة اليوميّة تعبيرًا عن هويّة الشركس، طالما أنّ التطوير لا يضرّ ما دام النسج الأصليّ واضحًا.

منهم من حسب أنّ ثقل الثوب التراثيّ الشركسيّ يبرّر الدعوة إلى بديل جديد أكثر رشاقة، ومستوحى من القديم.

منهم من نظر إلى الموضوع من جانب تكلفة تنفيذه المرتفعة، فدعا إلى تنفيذ تصاميم بأسعار مقبولة؛ لكي يستطيع أغلب النّاس اقتناءها. في حين، ذهب بعضهم إلى رفض أيّ تغيير، أو تحديث لما فيه الخراب لكلّ ما هو تراثيّ، إلى من أخذ بفكرة التطوير؛ لمواكبة العصر سواء في التصميم والألوان، أو في نوع الأقمشة الخفيفة، وفنون الخياطة الحديثة والزخارف، إضافة إلى الإكسسوارات الأقلّ ثقلًا مع الحفاظ على الخطوط الأساسيّة، الّتي تميّز الزيّ الشركسيّ عن سواه.

منهم من طرح فكرة الحفاظ على القديم من خلال أرشفة التصميمات التراثيّة؛ لحمايتها من الاندثار، كما هو الحال في الرقص والموسيقى، والمحافظة عليه كزيّ رسميّ مع تعديلات؛ ليتسنّى لبسه في المناسبات المتنوّعة، وأن يكون أكثر نعومة وخفّة خاصّة وأنّ الزيّ الرسميّ يصعب ارتداؤه للرجال والنساء؛ بسبب تغيّر العوامل والطبيعة، والظروف المعيشيّة، ونمط الحياة. إلى ضرورة المحافظة على زيّ المرأة، وعدم تغييره؛ لأنّه محتشم.

الخاتمة

تشغل العادات والتقاليد الشركسيّة حيّزًا كبيرًا من التراث الشركسيّ، الّذي يُعدّ بمنزلة جذور الحياة. وقد تبيّن بعد سلسلة محطّات من التهجير والاضّطهاد إثر الحروب والغزوات الطاحنة، الّتي تعرّض لها أهل الشركس في بلادهم، أنّهم استطاعوا المضيّ قُدُمًا حاملين تراثهم وهويّتهم على محمل الجدّ. وحرصوا على المحافظة على ذلك التراث، وعلى هويّتهم الّتي يخشون أن تتناساها الأجيال المتعاقبة. لذا، حاولوا ولا يزالون أن يزرعوا في عقول الأجيال الشابّة أهمّيّة المحافظة على ذلك الإرث التاريخيّ، وخاصّة ما يتعلّق بالزيّ ولبسهِ، وما يتعلّق بعاداتهم وتقاليدهم المتنوّعة.

بقي الزّيّ الشركسيّ حاضرًا على الرّغم من اصطدامه بالثقافات الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك الحضور الخجول، الّذي اقتصر على المناسبات الرسميّة، ارتبط

الـزيّ الشركسـي بعلاقـة متينـة مـع تقاليـد المجتمـع الشركسـيّ، المبنيّـة علـى الدّيـن والشـجاعة والجمـال والقـوّة والفروسـيّة، وعلى الرّغـم مـن اختـلاف نمـط الحيـاة إلّا أنّ ذلـك الـزيّ بقـيَ مرتبطًـا بتلـك الأُسُـس والتقاليـد.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربيّة:

- عاطف يخول، «مدخل للتراث الشفويّ الشركسيّ»، الجزء الأول، الأردن، 2009م.
- سعيد بينو،»الشيشان والاستعمار الروسيّ (1991-1859)»، عمّان 1997م.

المواقع الإلكترونيّة:

- موقع إلكترونيّ ثقافيّ

https://www.almadenahnews.com

- موقع ثقافيّ، مدوّنة

%https://www.rozana.fm

- فاطمة تليسوفا، «دعم القوميّة الشركسيّة يزداد في شمال القوقاز»

Georgiandaily.net, through Adyga NatPress

- أرشـيف الجمـال الشركسـيّ، المتحـف الضائـع، مؤرشـف مـن الأصـل فـي 11 مـارس 2015.
- مترجـم مـن برنامـج آنـة خـوراي – أيّ الطاولـة المسـتديرة، مـع ضيـف مـن شـركس سـوريا

https://www.facebook.com/watch/?v=603578653512869

https://www.facebook.com/watch/?v=603578653512869

- عوني تغوج، العادات والتقاليد الشركسيّة.

http://www.ich.gov.jo

- شركيسيا تايمس: الهويّة الشركسيّة – تأمّلات في يوم الحداد
http://circassiatimesarabic.blogspot.com
- إبراهيم الحيدري، ما هي الحداثة؟
https://elaph.com
- أقطاي بندقدار، مدوّنات الجزيرة، «عادات الشراكسة.. تركة لا تُترَك».
https://blogs.aljazeera.net
https://ar.wikipedia.org
http://info.wafa.ps
- موقع الصفحة الخاصّة (تعلّم لغتكَ الشركسيّة) على الفيسبوك
/https://www.facebook.com/groups/233368150095795

المقابلات:

- مقابلة مع رئيس نادي الجيل الجديد الشركسي نبيل عكاش، بتاريخ 04/10/2019.
- مقابلة مع المهندسة دانه محمود بيج، بتاريخ 08/10/2019.